مفهوم الفضاء وحروف الجر في اللغة العربية[1]

عبد المجيد جحفة

مقدمة:

تمتلك اللغة عدة وسائل يفترض أنها تعكس الأنساق المعرفية التي يشتغل الذهن البشري في حدودها. فنحن حين نريد موقعة شيء ما في العالم الخارجي عن طريق اللغة، فإننا نستعمل مجموعة من «المُموقِعات»، وهذه الأخيرة هي التي تمدنا، حين بحثنا إياها، بالتصور العام الذي يملكه الفرد بصدد الفضاء. فالفضاء كحقيقة خارجية ليس مقسماً وليس منظماً (أو مُمَقْوَلاً)، وما ينظمه هو العبارات الفضائية. وإذا كنا نريد معرفة التقطيع أو التصور الذي يمارسه الفرد على الفضاء (كحقيقة خارجية)، فإنه لا مندوحة من وصف هذه العبارات ووصف علاقات تداخلها.

ومن الأمور التي تفيدنا أيضاً في رصد تصورنا للفضاء علاقة المتكلم وشكله الهندسي بالفضاء، وإمكانات تحركه فيه. إن المتكلم حين يموقع شيئاً ما، فإن هذا المتكلم يكون مصدر النسق الإحالي للفضاء الذي يصفه. وبعبارة أخرى، فهو يشكل مركز الإحالة الفضائية التي تستند إلى ثلاثة محاور أساسية تخترق هذا المركز: محور عمودي (axe vertical)، ومحور أمامي (axe frontal)، ومحور جانبي (axe latéral)[2]. وهذه المحاور هامة في وصف الفضاء عن طريق اللغة، إذ ليس بإمكاننا إدراك المعنى الدقيق لجملة مثل (1) إلا إذا تخيلنا الموقع الذي يوجد فيه المتكلم:

(1) يوجد زيد أمام الشجرة.

فالمتكلم يجب أن يكون في مكان يتيح له رؤية زيد أمام الشجرة، وليس بجانبها أو فوقها أو تحتها أو عن يمينها... إلخ. إذن، فزيد يوجد أمام الشجرة (وهل للشجرة أمام وخلف ويمين وشمال؟) بالنظر إلى موقع المتكلم مصدر النسق الإحالي للفضاء.

مما يعبر عن الفضاء في اللغة العربية الظروف وحروف الجر وبعض الأسماء الدالة على الأمكنة، إلا أننا سنقصر الحديث على حروف الجر، لكونها تتميز عن العبارات الأخرى بتعبيرها عما هو نووي في الفضاء: الحلول والمسار (Location and Path)، ولكونها تستقل عن المتكلم وموقعه بخلاف الظروف. يتضح ذلك من خلال الجملتين التاليتين:

(2) يوجد القط خلف الكرسي.
(3) يوجد القط أمام الكرسي.

فهاتان الجملتان تفيدان شيئاً واحداً أو تصفان الحقيقة الخارجية نفسها، إذا كان من تلفظ بالجملة الأولى يوجد في موقع مقابل لمن تلفظ بالجملة الثانية وكان الكرسي بينهما، أو أن المتكلم بالجملتين (2) و(3) هو المتكلم نفسه، إلا أنه تلفظ بالجملة (2) وغيّر مكانه حتى أصبح يرى القط أمام الكرسي وليس خلفه، ثم تلفظ بالجملة (3). فموقع وصف الحالة هو الذي يختلف، أما ما تفيدانه فشيء واحد. وهذا الالتباس لن نجده في حروف الجر لحيادها النسبي بإزاء المتكلم وموقعه.

وما تتميز به الظروف عن حروف الجر، أيضاً، أنها تضيف تخصيصات للحلول (أو المسار) التي تعبر عنها حروف الجر بصورة نووية. وتخصيص هذين المفهومين هو إضافة معلومات أكثر تدقيقاً. فالاتجاهات الستة، مثلاً، تعتبر تخصيصاً إضافياً للحلول والمسار:

(4) كنت { خلف/أمام / فوق/تحت / شمال/يمين } شيء معين

فمن خصائص المكان الذي كنت أحل فيه أنه خلف أو فوق أو يمين. . . إلخ، فالمتكلم في (4) يوجد في مكان من خصائصه كذا وكذا.

نضيف تمييزاً آخر بين الحروف والظروف، وهو أن هذه الأخيرة لا تتضمن المسافة (أو المسار)، إلا إذا جعلها الفعل المرتبط بها تدل على هذه المسافة، ويشترط في هذا الفعل أن يكون حركياً (ونستثني، هنا، «نحو»).

1 ـ المكونات التحتية لحروف الجر

بعد أن حددنا الإطار العام الذي سيندرج فيه حديثنا في هذه الطبقة من الألفاظ، وجب تحديد كيفية رصد ذلك. نعني بذلك الإطار اللغوي الذي يمكن أن يندرج فيه هذا النوع من القضايا. فنحن نريد معرفة جزء من المعلومات التي ترمِّزها اللغة (وهي المعلومات الفضائية)، أين سنجد هذه المعلومات؟ سنجدها، بالطبع، داخل نظرية لمعاني الكلمات. وعلى هذه النظرية أن تمدنا بتصور عام عن المعلومات التي تفيدها الوحدات المعجمية (وحروف الجر منها، طبعاً). من الواضح أننا نتحدث عن المعجم، لأنه هو الكفيل بإعطائنا معاني الألفاظ والتأويلات الدلالية التي تسند إليها. ونفترض أن المعجم مستوى متسق ومطرد، وهذا المستوى ذهني، ولا يختلف شكلاً عن المعرفة النحوية التي ينبغي أن تكون لمتكلم اللغة[3].

من الاقتراحات الدالة بخصوص رصد البنية التحتية للعبارات الفضائية واتساقها ما قدمه /كروبر/ (Gruber[4] (1955). ينطلق هذا الاقتراح من افتراض بنيات قبل ـ معجمية (Prelexical structures) للحروف، وتفسر هذه البنيات الاختلاف السطحي فيما تفيده الحروف. وتوجد ثوابت معينة تسمح لهذه الحروف بأن تستعمل لوصف العلاقات الفضائية، ولكننا نجد عناصر متقابلة هي التي تنتج الدلالة الفضائية لكل حرف على حدة. وبالإضافة إلى هذا، فإننا نجد تسلسلاً معيناً من حيث البساطة والتعقيد في بنيات عدد من حروف الجر.

لقد كان التصور القديم لدراسة حروف الجر مبنياً على نظرة تصنيفية تقدم كل حرف على حدة دون ربطه، في الغالب، بالحروف الأخرى. والدراسات القديمة، وإن ربطت بين بعض الحروف وبعض معانيها، فإنها لم تكن تقدم تصوراً عاماً للتعالق بين المعاني وعلاقته، بدوره، بنظرة شمولية لما يمكن أن يدل عليه حرف الجر بصفة عامة. والتجميع الذي أقيم لحروف الجر كان ذا طبيعة تركيبية (فهي حروف الإضافة، تضيف ما بعدها إلى ما قبلها، ويحمل ما بعدها علامة الجر)، أما «التجميع» الدلالي فكان يشكو من بعض النقص، وخصوصاً على مستوى ربط العلائق الدالة، سواء بين استعمالات الحرف الواحد، أو ما يوحد استعمال حروف متعددة[5].

حين نتحدث عن حروف الجر، فإننا نتحدث قطعاً عن علاقات فضائية، ومن هذه العلاقات ما يفيد الحلول، ومنها ما يفيد الابتعاد عن الحلول، ومنها ما يفيد الاقتراب من الحلول. النوع الأول تمثل له بالحروف التالية: «في»، و«الباء»، و«مع» و«على». النوع الثاني تمثله «من» و«عن». والنوع الثالث تمثله «إلى» و«حتى» و«اللام». والجمل (5-7) تمثل لكل نوع، على التوالي:

(5) أ ـ نمت في الفندق.
ب ـ جئت مع صديقي.
ج ـ أقطن بالبيضاء.

(6) أ ـ جئت من فاس.
ب ـ رحلت عن تلك المدينة.

(7) ذهبت إلى مراكش.

الملاحظ أن هناك تجانساً بين الجملتين (6) والجملة (7) إذ تصف مسافة معينة أو انتقالاً في الفضاء، أما الجمل (5) فتصف حلولاً في الفضاء. إلا أنه ليس معنى هذا أنه لا يوجد ارتباط بين الجمل (6-7) من جهة، والجمل (5) من جهة أخرى، فالجمل (6-7) تتضمن، بالضرورة، ما تتضمنه الجمل (5). فالجملة (7) تفيد أني انتقلت (من مكان ما) إلى مراكش، أي حصول حركة واستقرار لهذه الحركة أو انتهائها في مراكش. إذن، فالحرف «إلى» يتضمن «في»، ولذلك نسمي النوع الذي تنتمي إليه «إلى» بأنه الاقتراب من الحلول. إلا أن الجملة (6 ـ أ) لا تتضمن هذا الاقتراب، وكذلك الجملة (6 ـ ب) بل تتضمن عكسه، فهي تفيد الابتعاد من الحلول، إنها تعني أني جئت من فاس (إلى هذا المكان الذي أتحدث منه). فإذا كانت عبارات الاقتراب من الحلول تتضمن هدف الحلول، زيادة على الاتجاه، فإن عبارات الابتعاد من الحلول تتضمن فقط الاتجاه، ولا تتضمن الهدف، بل تتضمن نفيه:

(8) الاقتراب (= الاتجاه + الهدف) = الاتجاه + في.
(9) الابتعاد (=الاتجاه – هدف) = الاتجاه + لا في.

فإذا كانت الصياغة (8) تركز على الهدف الذي نسير إليه

في إطار اتجاه معين، فإن (9) تركز على المصدر الذي انطلقنا منه لنسير في الاتجاه غير المحدد.

هذا عن العلاقة بين العبارات الاتجاهية (الاقترابية والابتعادية) والعبارات الحلولية. فالاقتراب، كما رأينا، يتضمن حلولاً والابتعاد يتضمن اللاحلول. وإذا كانت علاقة الاتجاه بالحلول علاقة تضمن (تضمن الهدف أو نفيه)، فإن علاقة الاقتراب بالابتعاد هي النفي. لاحظ الفرق بين (10) و(11).

(10) ذهب زيد من المدرسة.

(11) ذهب زيد إلى المدرسة.

إن المسافة «من المدرسة» تنفي المسافة «إلى المدرسة»، و«من المدرسة» هي في الحقيقة «لا إلى المدرسة». وهذا الأمر واضح في كل الاستعمالات الفضائية الموجودة في اللغات الطبيعية التي نعرفها، إذ تعني «من» نقطة الانطلاق أو المصدر، وتعني «إلى» نقطة الانتهاء أو الهدف. إلا أننا نحتاج إلى تمثيل ذلك بصورة دقيقة وواضحة عن طريق كشف العلاقات التي تُبَنْين هذه التعابير.

وللزيادة في الاستدلال نشير إلى أن نفي الجملة التي تتضمن «إلى» لا ينتج عنه، عادة، المعنى الذي تعبر عنه «من»:

(12) لم يذهب زيد إلى المدرسة.

فالجملة (12) التي تعتبر نفياً للجملة (10) لا تنفي المسافة «إلى المدرسة». فالنفي الموجود في (12) يعتبر نفياً صورياً لا علاقة له بالنفي الذي نتحدث عنه. فنفينا للجملة المتضمنة للحرف «إلى» لا يعطينا معنى جملة متضمنة للحرف «من».

ويتجلى هذا النفي المقترن بـ «من» في سياقات لا يمكن أن يكون معناها إلا النفي، ولذلك ترتبط «من» بأفعال تفيد المنع والحرمان، مثلاً، فتقول: منعته من الشيء وحرمته منه، ولا تقول منعته إليه أو حرمته إليه، أو منعته الشيء.

تحدثنا، لحد الآن، عن «في» و«إلى» و«من». و«في» عنصر نووي تتضمنه كل من «إلى» و«من»، ولعل هذا التضمن هو السبب في نفي «من» للحرف «إلى» إذ يرجع ذلك، بالأساس إلى كون «إلى» تتضمن «في»، و«من» تتضمن «لا في».

إن ما تشترك فيه «في» و«الباء» و«مع» و«على» أنها تدل على عدم الحركة (أو الحلول)، أما ما تختلف فيه فهو كون «في» تمثل أبسط تعبير عن الفضاء (وذلك واضح مما سبق). فالحرف «على» يتضمن «في» عمقاً:

(13) كان الكتاب على الطاولة.

فالكتاب كان يوجد في مكان من خصائصه أنه «على الطاولة»، فـ «على» تضيف سمة الاستعلاء إلى «في».

أما الباء فهي، وإن اشتركت مع «في» في دلالتها على الحلول، فإن بنيتها أعقد من «في» نظراً لغنى وتنوع التراكيب التي تظهر فيها مثل الأداة والمكان، والمصاحبة... إلخ.

2 ـ العلاقات شبه ـ الفضائية:

من المؤكد أن حروف الجر لا تستعمل لوصف الفضاء فحسب، بل إننا نجدها في العبارات الدالة على الملكية، والعبارات الدالة على الزمن، والعبارات الدالة على التعيين (identificational expressions). ونفترض، تبعاً لعدة أعمال، منها أعمال /**الفاسي الفهري**/ (1986)، و/**دجاكندوف**/ (1983)، أن العلاقات الفضائية المادية التي سبق أن حللناها تُسقَط أو تُعمَّم على هذه الحقول السابقة التي نسميها حقولاً شبه ـ فضائية، وذلك انطلاقاً من افتراض التلاقح عبر ـ الحقولي. إذن، فالحلول والمسار، وهما المفهومان الأساسيان في الفضاء، موجودان في الحقول شبه ـ الفضائية.

1.2 ـ الملكية وتوسيعها:

لننظر إلى الجملتين التاليتين:

(14) أ ـ باع زيد الكتاب لعمرو.
ب ـ أعطى زيد الكتاب لعمرو.

نعبر بواسطة هاتين الجملتين عن انتقال في ملكية الكتاب، والمالك يكون هو مفعول اللام (أو «إلى» في حالات أخرى)، أو مفعول «من»، وذلك بحسب البنية المعجمية للفعل، هل يمثل «انتقالاً إلى» مثل «باع» و«أعطى»، أم يمثل «انتقالاً من»، كما في:

(15) أ ـ تلقيت الكتاب من زيد.
ب ـ اشتريت الكتاب من زيد.

وهذه الاستعمالات كلها حركية لارتباطها بأفعال تفيد الحركة[6]. إلا أننا نجد استعمالات غير حركية تعبر عن الملكية، ويكون فيها مفعول الحرف هو المالك:

(16) أ ـ كان لي أمل أحدوه.
ب ـ ينتمي الرجل إلى جماعة المتمردين.

كما أنه من الاستعمالات غير الحركية في حقل الملكية ورود «في» مرتبطة بما يملكه شخص ما:

(17) أ ـ كان في جاه ومال.

ب ـ إنه في غنى يحسد عليه.

نستخلص أن الجمل (14-17) تستعمل العلاقات الفضائية الأساسية (الحلول والمسار) للدلالة على الملكية. وبعبارة أخرى فالعلاقات الفضائية تُبَنْيِنُ حقل الملكية. ولكن، كيف يتم ذلك؟

حين نستعمل العلاقات الفضائية للدلالة على الفضاء الحقيقي، فإن مفعول حرف الجر يكون عبارة عن مكان، أما حين نستعملها للدلالة على الملكية، فإن الانتقال لا يكون من مكان إلى آخر، وإنما من شخص إلى آخر، والحلول يكون لشخص معين في ملكية أو في شيء مملوك، ولهذا نعتبر الملكية شبه ـ فضاء.

والملاحظ أن الأفعال الدالة على الملكية تقدم حقلاً مغايراً للحقل الفضائي، أو تقدم أسرة من الحقول، على وجه التدقيق، بما أنه توجد مفاهيم متعددة للملكية. والفرق الواضح داخل بنيات الملكية هو ذلك الذي يميز بين الملكية الثابتة كامتلاك الفرد لأنفه أو يده، والملكية غير الثابتة كامتلاك الفرد لكتاب أو سيارة، مثلاً[7].

ومهما تكن الملكية التي نتحدث عنها، فالملاحظ أن بنياتها تسلك السلوك نفسه الذي يقوم به عنصر المكان في الحقل الفضائي. ويكمن هذا التوازي بين الملكية غير الثابتة (وسنقتصر عليها) والمكان، في أن «ص يملك س» هي الموازي التصوري للبنية الفضائية «س يوجد في ص».

إن شبه ـ الفضاءات التي تظهر في الملكية هي فضاءات متقطعة، ولا سبيل إلى التعبير ـ داخلها ـ عن انتقال غير متقطع من شخص إلى آخر. وهكذا، فالشيء المملوك ينتقل مباشرة إلى نهاية المسار (= المالك الجديد). وتمثل الجمل (18) أهم الأفعال التي تندرج ضمن هذا الحقل:

(18) أ ـ يملك زيد سيارة.

ب ـ تلقى زيد هدية.

ج ـ فقد الأمير مملكته.

د ـ أعطت هند قميصاً لعمرو.

هـ ـ حفظت هند متاعها.

و ـ قبلت خديجة الرداء.

ز ـ باعت الأستاذة كتبها لزيد.

ح ـ اشترى زيد الكتب من الأستاذة.

ط ـ بقي الكتاب في حوزة زينب.

وبعض الأفعال فقط نجدها مقتسمة بين الحقلين الفضائي والملكي[8]، ومنها «مكث» و«بقي»، إذ نقول:

(19) أ ـ بقي خالد في البيت طول النهار.

ب ـ مكث الطفل على مقعده.

فهذان الفعلان، وما شابههما، استقراريان، ولذلك فالحروف التي تظهر صحبتهما حروف حلولية (في والباء وعلى)، وليس الحروف المسارية:

(20) أ ـ * مكث الطفل إلى مقعده.

ب ـ * مكث الطفل من مقعده.

أما البنى التي قد ترد فيها «من» صحبة أفعال استقرارية مثل:

(21) بقي منه شيء قليل.

فلا تكون «من» فيها تابعة للفعل، بل هي فضلة، وتقديرها:

(22) بقي شيء قليل منه (أو شيء منه قليل).

وإذا كان التركيب مصدر ـ هدف، أو التركيب من ـ إلى، يشغل حيزاً هاماً في العلاقات الفضائية، فإنه يطغى، أيضاً، في حقل الملكية. ويستعمل للدلالة على انتقال المكون الحامل للدور الدلالي المحور، هذا العنصر الذي ينتقل بين مكانين في الحقل الفضائي، وبين شخصين في حقل الملكية. ولعل أكبر دليل على توازي العلاقات التي يقيمها الحقلان التباس جمل مثل (23) بين تأويل الملكية والتأويل الفضائي:

(23) انتقل الكتاب من زيد إلى عمرو.

فما يميز بين (23) و(24) هو نوعية المحور:

(24) انتقل خالد من زيد إلى عمرو.

فكل من «زيد» و«عمرو» في الجملتين في مكان (مكان بداية الحركة ومكان نهايتها، على التوالي). وما يتميز به المحور في (23)، وهو الكتاب، هو كونه [ـ حي]، في حين ينتمي المحور في (24) وهو خالد، إلى ما كان [+ حي].

2.2 ـ الحقل الزمني:

تشير أغلب الدراسات التي أقيمت حول حروف الجر إلى أن هناك تماثلاً كلياً بين حروف الجر الدالة على الفضاء وحروف الجر الدالة على الزمن. وترتبط المركبات الحرفية الزمنية بالجمل التي تنتمي إليها بالكيفية نفسها التي ترتبط بها المركبات الحرفية الفضائية بجملها. والمعطيات التالية تثبت ذلك:

(25) أ ـ في الساعة العاشرة.

ب ـ من الأربعاء إلى الجمعة.

ج ـ في سنة 1976.

(26) أ ـ في الغرفة.
ب ـ من الكلية إلى البيت.
ج ـ في فاس.

(27) أ ـ دونت مذكراتي في 1976.
تناولت العشاء في الثامنة.

ب ـ دونت مذكراتي في فاس.
تناولت العشاء في البيت.

يتضح من هذه المعطيات أن العبارات الزمنية تحدد شبه فضاء (Pseudospace) ذي بعد أحادي، وهذا البعد الأحادي يتمثل فيما يُسمّى بالخط الزمني. وهنا يكمن الفرق الجوهري بين الزمن والفضاء[9].

وللنظر في عمق التماثل، نشير إلى أن نماذج الأفعال التي تظهر صحبة عبارات الفضاء المادي تظهر، أيضاً، صحبة عبارات الزمن. لنقارن بين المجموعة (28)، التي ترد فيها علاقات زمنية، والمجموعة (29)، التي توجد فيها علاقات فضائية مادية:

(28) أ ـ تم الاجتماع في العاشرة.
ب ـ نقلنا الاجتماع من الأربعاء إلى الجمعة.
ج ـ رغم انشغالنا، أبقينا الاجتماع في العاشرة.

(29) أ ـ توجد النافورة في الساحة الكبرى.
ب ـ نقلنا النافورة من الساحة إلى الحديقة.
ج ـ أبقينا النافورة في الساحة.

فهاتان المجموعتان تبينان قوة التوازي الحاصل بين الحقلين. فعندما نصف حالة معينة (a State)، فإننا نستعمل الفعل نفسه، وعندما نريد التعبير عن التغيير فإن الأفعال المستعملة تكون، أيضاً، مماثلة لأفعال الحركة الفضائية. والشيء نفسه نلاحظه بالنسبة للأفعال الدالة على الامتداد (وهي أفعال حركية). ولنقارن بين (أ) و(ب) في (30):

(30) أ ـ امتد خطابه من الثانية إلى الرابعة.
ب ـ تمتد الطريق من فاس إلى مراكش

فللتدقيق في قوة هذا التوازي علينا النظر في التداخل الحاصل بين العبارات الفضائية والعبارات الزمنية التي تقابلها. فالفعل الحركي الدال على الامتداد الموجود في (30 ـ ب) يحول شيئاً ومساراً إلى حالة، ويفيد هذا الفعل أن الشيء يحتل كل نقطة في المسار. وحين ننقل ذلك إلى المجال الزمني، كما في (30 ـ أ)، نجد أن الفعل الحركي الدال على الامتداد يحول حدثاً ومساراً زمنياً إلى حالة، ويفيد أن الحالة تحتل كل النقط الزمنية الموجودة داخل المسار الزمني.

إن الفعل «نقل»، في (28 ـ ب)، يفقد معنى العبور غير المتقطع، فهو يفيد أنه في بداية الحدث الذي يصفه كان الاجتماع في الأربعاء، وفي نهايته في الجمعة. فإذا كان المسار الفضائي غير متقطع من حيث تصوره، فإن المسار الزمني قد يُتصور متقطعاً.

وليست هذه هي الطريقة الوحيدة التي قد يتصور بها الزمن. هناك صيغة أخرى تعد فيها الأزمنة محاور (themes)، عوض كونها مفعولات محيلة (مرتبطة بعبارات فضائية كحروف الجر). لنقارن بين (31) و(32):

(31) أ ـ يقترب الاثنان بسرعة.
ب ـ كان مستقبلنا يمتد أمامنا.

(32) أ ـ كان القطار يقترب بسرعة.
ب ـ كانت الحقول ممتدة مثل بساط.

فالمراحل الزمنية، هنا، تتصور كما لو كانت تتحرك في علاقتها بالمُعاني (experiencer) الذي يتصور، بدوره، على أنه مفعول محيل. ومن المفيد أن نلاحظ سلوك هذا النوع من الزمن باعتبار ما قلناه سابقاً. فهذه العبارات تبدو دائماً أكثر حركية بالمقارنة مع ما سبق، ويبدو أن السبب في ذلك كامن في أن هذه العبارات ترتبط بتجربة أو معاناة الزمن، خلافاً للأمثلة السابقة التي تجعل الزمن مجرداً من المعاناة، ولا تتنبأ بإمكان جعل الفرد يعيش الزمن كمراحل مختزلة تتحرك داخل الأحداث، لا أن تتحرك الأحداث داخلها.

3.2 ـ حقل التعيين:

نكون بصدد حقل للتعيين حين يكون المركب الاسمي مخصصاً لوصف معين يسبغه على موضوع ما داخل الجملة. وأهم شيء نسجله في هذا الحقل هو أن التحلي أو الاتصاف بخاصية ما يلعب دور الفضاء في الحقل الفضائي. والتحلي بصفة معينة، إما أن يكون ثابتاً على موضوع معين، وإما أن يكون متغيراً.

لننظر إلى الأمثلة (33):

(33) أ ـ محمد رسام.
ب ـ تحولت هند إلى مغايرة.
ج ـ انقلبت المديرة من الرزانة إلى الشطط.

فالتعيين في (33 ـ أ) يعني التحلي بصفة «رسام»، وترجمتها بالتعبير الفضائي: إن الصفة «رسام» توجد في «محمد». والمسار الجزئي الموجودة في (33 ـ ب) والمسار التام (أو المغلق) الموجود في (33 ـ ج) يوضحان تصور التعيين

من خلال العلاقات الفضائية.

أما جمل مثل (34):

(34) بقي زيد وزيراً.

فتعني استمرار التحلي بصفة معينة، وتتضمن حرفاً تحتياً هو «في»، شأنها في ذلك شأن (33 ـ أ)، وهذا الحرف يتحقق في البنى الفضائية ولا يتحقق هنا. إلا أن الانتقال التعييني يتطلب حروف جر حركية متحققة سطحاً (كما في (33 ـ ب ـ ج)). فإذا كان التعيين قاراً، فإن الحرف الاستقراري «في» لا يظهر لكون التعيين القائم يُمَعْجِمُ (Lexicalize) هذا المعنى داخل الفعل، بخلاف الاستعمال الفضائي. ولعل الدليل على وجود «في» وعدم تحققها في هذه البنى وجودها في بنى مشابهة:

(35) أ ـ في هذا الرجل مكر.

ب ـ في نفسه شيء من حتى.

فالمكر و«شيء من حتى» صفات نضفيها على الموضوعين (الرجل والضمير، بالتوالي). ونجد الشيء نفسه في اللغة المغربية الدارجة:

(36) أ ـ أحمد فيه السخانة.

ب ـ مليكة فيها الشيكي والكذوب.

إن الصفات تسند إلى الموصوفات فضائياً؛ فالأشخاص، في تصورنا، عبارة عن فضاءات تحل فيها الأوصاف، وتنتقل عبرها أو فيها.

ومن مميزات هذا الحقل توظيف حرف الجر الكاف لوَسْم ما يسمى بالتعيين الحلولي. وتعطينا الجمل (37) بعض التراكيب التمثيلية، وأغلبها معقد، ولا تتاح لنا معالجتها بواسطة الأشكال التي قدمناها سالفاً:

(37) أ ـ كنت أشتغل كمدرس.

ب ـ لقد عامله ككلب.

ج ـ كمواطن من حقي إبداء رأيي.

وقد ترد مقابلات وصفية للمركبات الحرفية المرؤوسة بالكاف فتحذف الكاف:

(38) اشتغلت مدرساً.

4.2 ـ «منذ» والحقل الواحد:

من خصائص «منذ» إفادتها لابتداء الغاية الزمنية، شأنها في ذلك شأن «من». إلا أنه إذا كانت «من» مستعملة في كل الحقول، وبشكل واسع، لإفادة بداية الحركة، فإن «منذ» لا تستعمل في الحقل الزمني، كما في:

(39) تعلم محمد السياقة منذ صباه.

وما لحقته «منذ» ولم يكن دالاً على الزمن يؤول على الزمنية، وليس على شيء آخر:

(40) لم أره منذ حادثة الغاز المشؤومة.

أي: منذ زمن حصول تلك الحادثة. كما أن الجملة التالية لا تؤول إلا على الزمنية، خلافاً لما قد يعتقد:

(41) لم يحدثني منذ الرباط وما ودعني بعد الوصول إلى فاس.

فهي تصف، من جملة ما تصفه، مساراً يبدو فضائياً لأول وهلة (وهو الرباط ـ فاس)، ولكن هذا الفضاء زمني إلا أنه محدد عن طريق المكان، ومعناه: «منذ زمن وجودنا بالرباط».

من مستتبعات كلامنا هذا ضرورة الإجابة عن سؤال أساسي وهو: هل يمكن أن يكون قطبا المسار (المصدر والهدف) مختلفين حقلياً، فيشير أحدهما إلى الزمن، والآخر إلى الفضاء؟ يكذِّب هذا السؤال ويرجِّح قيد الانسجام الحقلي للقطبين لحنُ الجملة التالية:

(41) * لم يحدثني من الرباط وما ودعني بعد الوصول إلى فاس.

فـ «من» مستعملة هنا للفضاء وليس للزمن، لأنها ألحقت باسم دال على المكان. وهي لا تشبه «منذ»، من هذه الناحية، إذ إن ما يأتي بعد «منذ»، وإن كان اسماً دالاً على المكان يؤول على الزمنية، كما سبق. ولحن الجملة (42) راجع إلى أن المصدر فضائي والهدف زمني. إذن، فالجملة (41) تصف مساراً زمنياً محدداً بواسطة فضاء هو أسماء الأمكنة. وإذا كان التأويل الممكن للمصدر في (41) هو الزمنية، فإن ما ينتج عن ذلك هو تأويلنا للهدف، في البنية نفسها، على الزمنية، أيضاً، تبعاً لقيد انسجام قطبي المسار، وهو وجوب انتماء القطبين للحقل نفسه.

إن «منذ» تعتبر ـ إذا كان تحليلنا صحيحاً ـ متغيراً للحرف «من» في الحقل الزمني. وما تتميز به «منذ» عن «من»، داخل الحقل الزمني، أنه لا يرد بعدها المركب الحرفي الهدف، في الحمل نفسه، على الأقل سطحاً:

(43) * اشتريت هذا الكتاب منذ صغري إلى سن الأربعين.

فبروز الهدف مع «منذ» يفيد نهاية امتلاك الكتاب، والحل أن «منذ» تستعمل لإفادة المصدر وإفادة هدف مقتضى تقديره، مع فعل ماض، «إلى الآن». لذلك كانت الجملة (43) لاحنة إذ إن المعلومة التي تقدمها هذه الجملة أن الهدف في الماضي (وهو السن الأربعون). وفوق كل هذا، فالفعل «اشترى»، وهو محمول الجملة، لا يفيد

امتداداً زمنياً، وإنما يفيد حدثاً وقع في الماضي؛ ولا يتردد فعل الشراء (كحدث واحد) على طول مسار معين.

خاتمة:

نظرنا في بعض استعمالات حروف الجر (وبعض حروف الجر فقط)، ولم نتعرض إلى كل استعمالاتها. يرجع ذلك إلى كوننا أردنا تقديم مقومات العلاقات الفضائية، أولاً، ثم الدفاع عن افتراض التلاقح عبر- الحقولي وإسقاط العلاقات الفضائية في حقول أخرى كالملكية والزمن والتعيين. ومعلوم أن هناك استعمالات أخرى لحروف الجر هي الاستعمالات المجازية، وتتصف هذه الأخيرة بكونها تتمتع بشفافية أقل في تضمنها للعلاقات الفضائية. لدينا، إذن، إسقاط شفاف، وهو الذي سقناه عند حديثنا عن الحقول، وإسقاط غير شفاف وهو الوارد في المعاني المجازية التي لم نتحدث عنها هنا. والاستعمالات الشفافة لا تحتاج إلا إلى إسقاط المعلومات الفضائية في حقول شبه فضائية، أما الاستعمالات غير الشفافة فتحتاج إلى قاعدة مجازية أو مبدأ مجازي يبرر ذلك الانتقال من الاستعمال الفضائي إلى الاستعمال المجازي[10]. فالمتكلم حسب افتراضنا، يبني كل هذه الحقول السابقة وهذه الاستعمالات المجازية انطلاقاً من التصور الفضائي الذي يلعب دور المنظم؛ فلكي نمر إلى مفاهيم فضائية مجردة يجب أن نعرج على المفاهيم الفضائية المادية.

عبد المجيد جحفة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية [الدار البيضاء]

الهوامش والمراجع:

(1) يشكل هذا المقال تلخيصاً مبسطاً لفصل من رسالة أعددتها لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللسانيات العامة بإشراف الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري. وأود أن أتوجه إليه، بالمناسبة، بجزيل الشكر على العناية التي حظيت بها منه، والملاحظات الغنية التي أفدتها منه.

(2) انظر فاندلواز Vandeloise (1986)، ص 12.

(3) انظر الفاسي الفهري (1986).

(4) البنيات التحتية المقترحة هي، في الحقيقة، جزء من بنيات تحتية للأفعال، ويتحكم في هذه البنيات التحتية، التي لا يمكن للأفعال أن تخرج عنها، عنصرا الاستقرار والحركة، إذ لا يمكن للفعل إلا أن يمثل لأحد هذين العنصرين الأوليين. وكون حروف الجر (على الأقل تلك التي ندرسها هنا) تفيد إما الحلول أو المسار يقابل ما تفيده الأفعال في بنيتها التحتية. انظر الفاسي الفهري (1985) و(1986) وكروبر Gruber (1965)، ودجاكندوف Jackendoff (1983).

(5) لا يمكن أن ننكر، هنا، عدداً من الملاحظات القيمة التي قدمها سيبويه أثناء حديثه عن معاني حروف الجر، كافتراضه أن لكل حرف جر معنى أصلاً، وقد تبعه في ذلك عدد من النحاة أمثال الزجاجي وابن هشام والمرادي وغيرهم.

(6) سميت العلاقات الموجودة بين أفعال مثل «باع» و«اشترى»، أو «أعطى» «حصل»، أو «أرسل» و«تلقى»...، علاقات توارد (Co-occurence relationships). وتوجد علاقة توارد بين فعلين مختلفين حين تكون القيود الانتقائية التي يفرضها أحدهما على موضوعاته هي نفسها القيود الانتقائية التي يفرضها الآخر على موضوعاته مع اختلاف في ترتيب هذه الموضوعات. وقد كانت هذه العلاقات حافزاً لمحاولة افتراض شكل تحتي مشترك بين هذه الأفعال. انظر كروبر (1965) في الفصل الأول على الخصوص. وقد تقدم دجاكندوف (1983) باقتراح مهم يتركز على هذه الأفعال لانتقاد ما يسميه تشومسكي (1980) بالمقياس المحوري (O-criterion).

(7) انظر ميلر ودجونسن ليرد Miller Johnson-Laird (1976) لمزيد من التفصيل.

(8) انظر الفاسي الفهري (1985) الفصل الثامن، والفاسي الفهري (1986) الفصل الأول.

(9) يكمن الفرق بين الزمن والفضاء في كوننا لا نتصور الفضاء باعتباره خطاً واحداً، بل إنه متعدد الأبعاد والخطوط. أما الأزمنة فلا يمكن أن نتصورها إلا منتظمة في خط واحد، ولا يمكنها أن تتموقع خارج هذا الخط، سواء أكانت أزمنة دقيقة أم مراحل زمنية.

(10) يمكن الاستعانة في رصد البنى المجازية التي ترد حروف الجر للتعبير عنها بعدد من المبادىء الدلالية المجازية التي تحدث عنها غاليم (1987) وجحفة

- جحفة، عبد المجيد، (1989): **حروف الجر في اللغة العربية: بعض قضايا التركيب والدلالة**، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. الرباط. المغرب.
- غاليم، محمد، (1987) **التوليد الدلالي في البلاغة والمعجم**، دار توبقال، للنشر الدار البيضاء.
- الفاسي الفهري، عبد القادر، (1985) **اللسانيات واللغة العربية**. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء.
- **الفاسي الفهري، عبد القادر**، (1986): **المعجم العربي: نماذج تحليلية جديدة**. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء.
- المرادي: **الجنى الداني في حروف المعاني**، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل. دار الآفاق الجديدة. 1983.
- Gruber, J.S. (1976) *Lexical Structures in Syntax and Semantics*, North Holland Publishing Company.
- Jackendoff, R. (1983) *Semantics and cognition*, MIT Press.
- Vandeloise, c. (1986) *L'Espace en Français*. Le Seuil. Paris.
- Miller and Johnson-Laird (1976) *Language and Perception*. Harvard University Press, Cambridge.